الفصـــــــل الرابع

حول محفوظات بلاد فارس والأفيستا

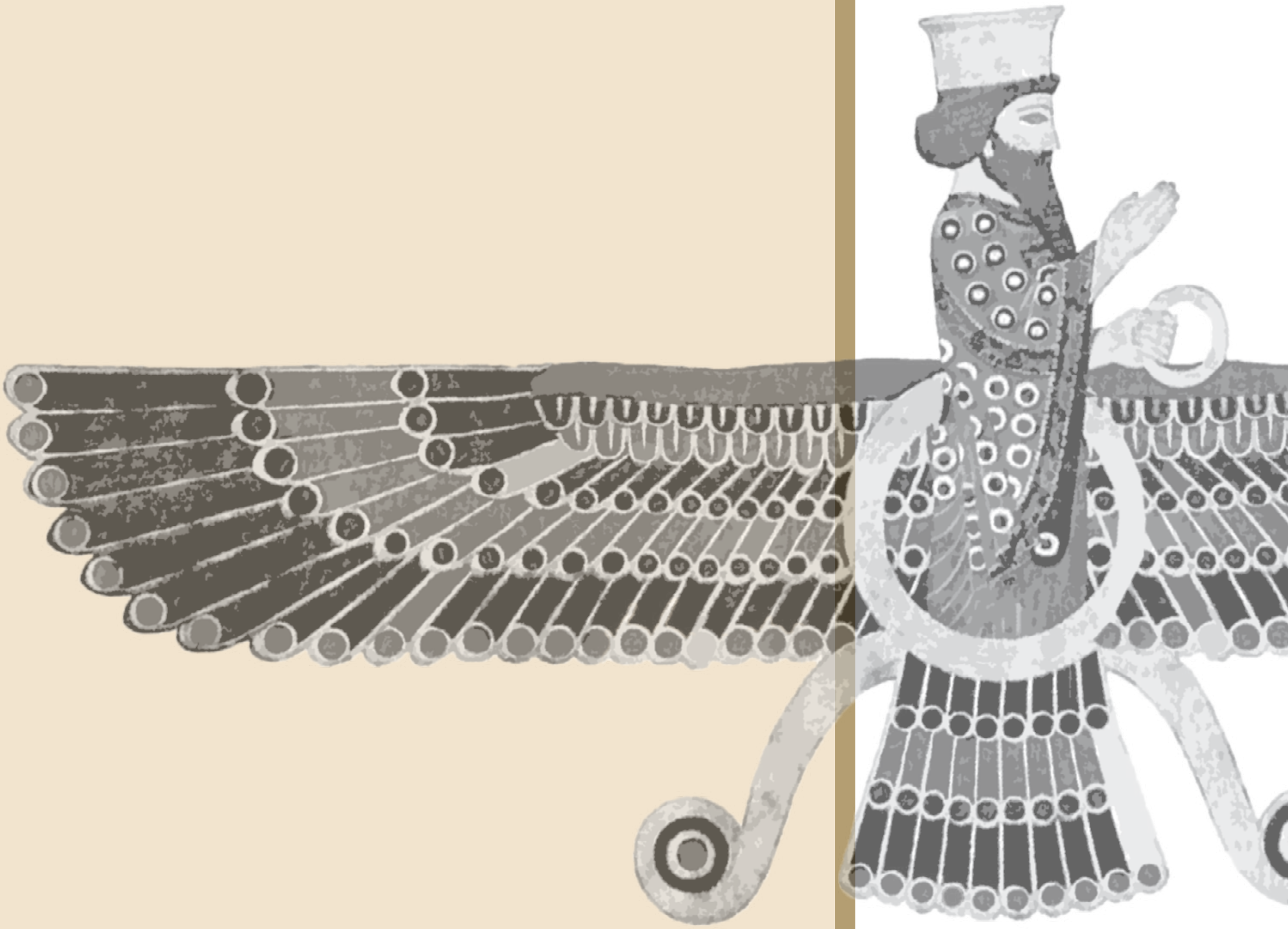

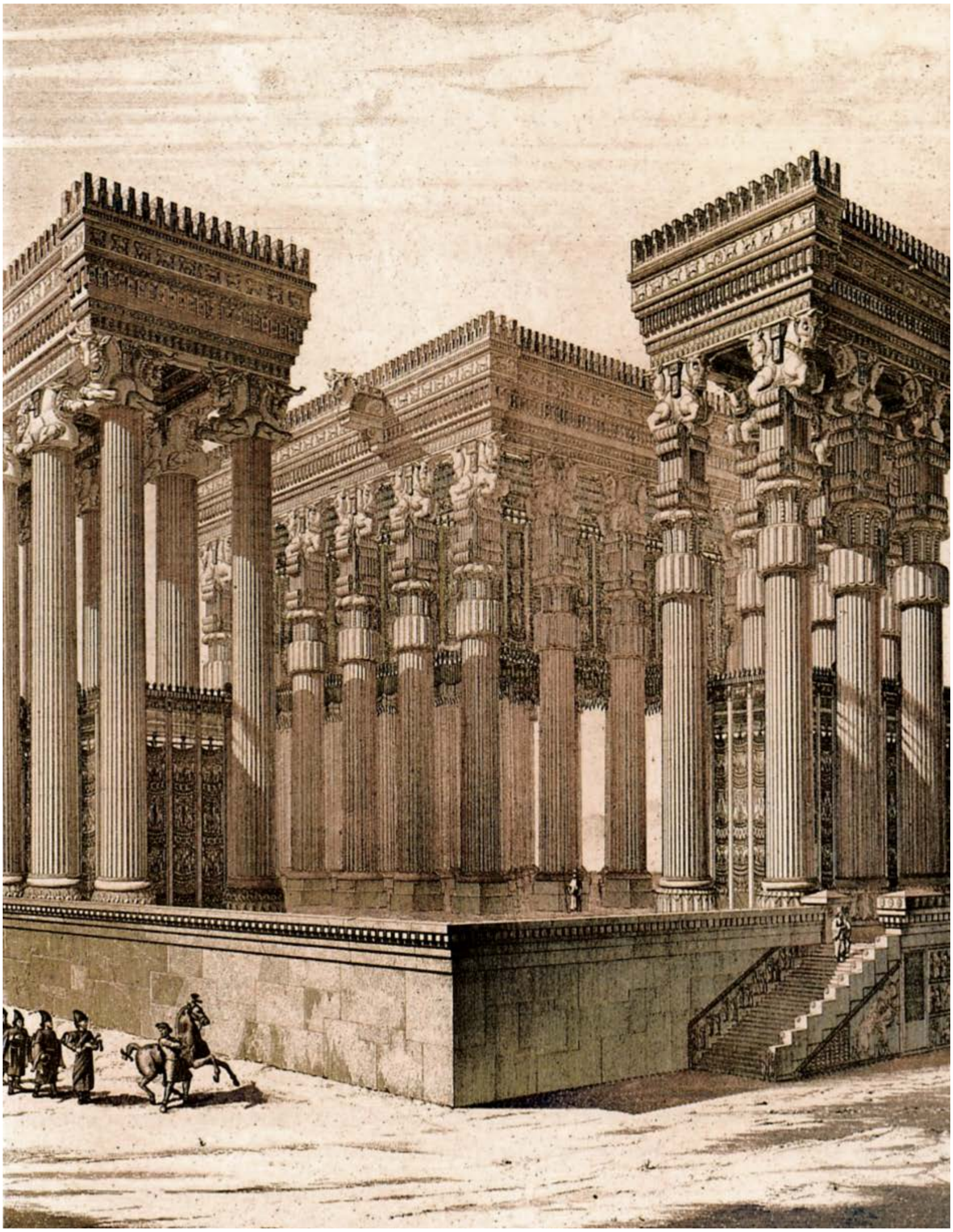

٨٧. برسيبوليس، قاعة كسيركسيس العمودية، من إصدار Georges Perrot & Charles Chipiez،
«Histoire de l’art dans l’antiquité...»، م. ٥، باريس، Librairie Hachette، ١٨٩٠ (م. أ).

لقد استسلمت «برسيبوليس» عاصمة الإمبراطورية الفارسية دون مقاومة أمام الإسكندر، وتبع ذلك احتفال عظيم على شكل مأدبة ضخمة حضرها جنرالاته ورفاقه.[١] ومما يبدو فقد تطورت هذه المأدبة إلى حلقة من المرح، انتهت بحرق مجمّع قصور داريوس عن عمد أو غير عمد. مهما كانت الحقيقة، ورغم أن الإسكندر لم يكن حاضراً أثناء حدوث ذلك، فقد أعطى هذا الحريق الحجة لأتباع زرادشت في إثارة الشعور الديني لدى الشعب الفارسي، واصفين ما حدث بأنه تدنيس لمقدساتهم الدينية التي كانت محفوظة هناك.[٢] وهنا نجد أنفسنا بصدد مسألتين يجب البحث فيهما، الأولى تتعلق بمكان ومحتوى أرشيف ملوك بلاد فارس الذي كان موضع حفظ النصوص المقدسة، بينما الثانية تتعلق بالأسطورة التي ابتُدعت حول تدمير النصوص المكتوبة الأصلية لزرادشت، والتي وفقاً للفرس والعرب تمت ترجمتها سابقاً إلى اليونانية بأمر من الإسكندر.

محفوظات برسيبوليس والنظام البيروقراطي عند الفرس

عثرت الحفريات الأثرية على أرشيف (= كنز) قصور برسيبوليس وقامت بتسليط الضوء على محتوى النصوص المكتوبة التي كانت تمثل مراسلات بيروقراطية ودبلوماسية متعلقة بالمنظومة الإدارية للإمبراطورية المترامية الأطراف.[٣]

لقد تم تنظيم منظومة الاتصال الخاصة بالملوك الفرس حتى مع أبعد شطربيات الإمبراطورية الأخمينية من قِبل مؤسس السلالة الحاكمة قورش الكبير (٦٠٠ - ٥٣٠ ق.م.)

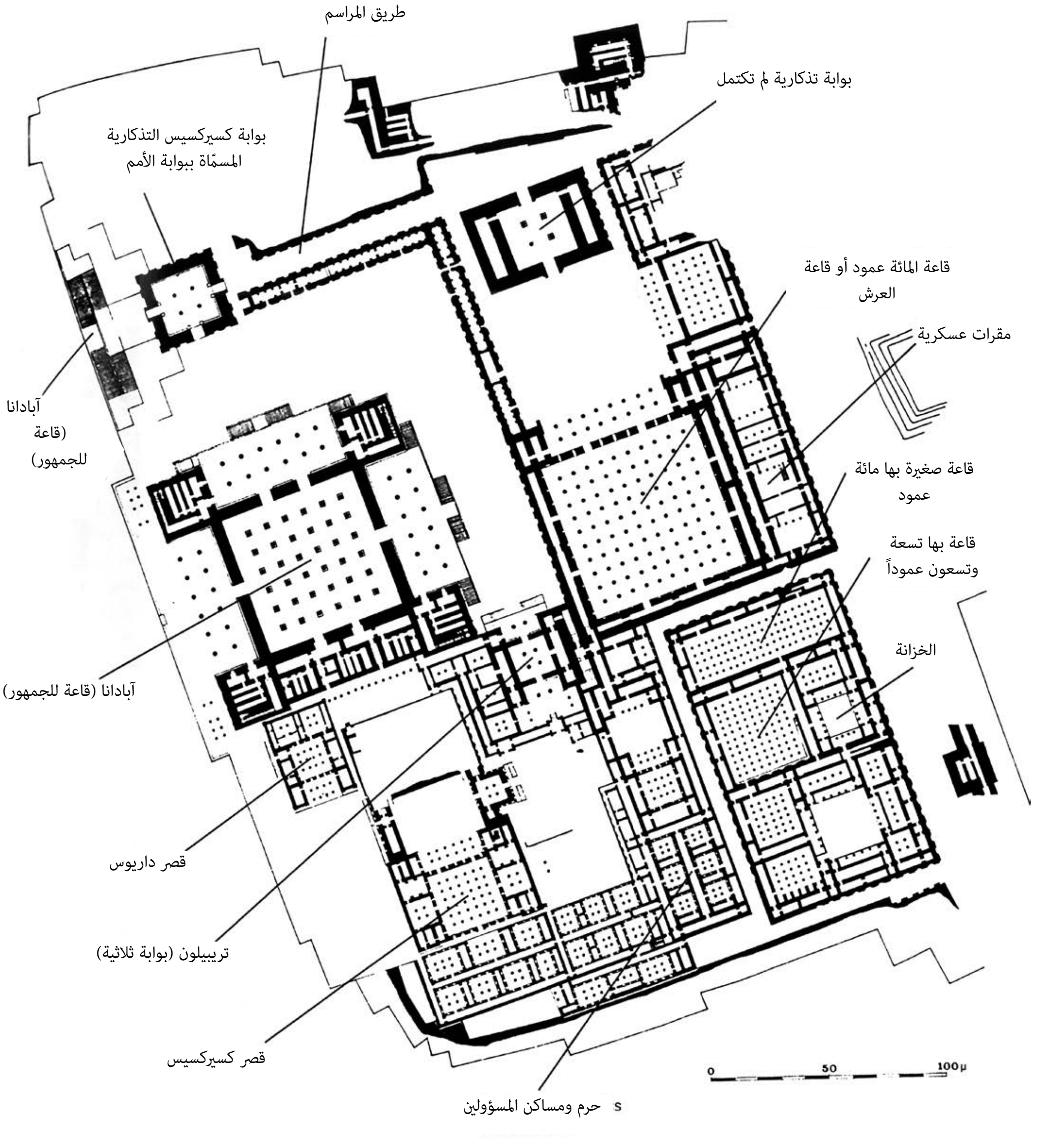

٨٨. رسم يصور مباني برسيبوليس. من إصدار «برسيبوليس، المدينة المخفية»، National Geographic (أسرار الحضارات القديمة)، أثينا، سيلينا للنشر،٢٠١٣.

الذي فرض نظاماً بيروقراطياً للإعلام اليومي العام، فيما يخص الأحكام والسجلات المفصلة لجميع الأنشطة الملكية. فلم يتطلب الاتصال اليومي - حتى مع أبعد المناطق في الإمبراطورية - شبكة طرق مناسبة فحسب، بل نظاماً عملياً استثنائياً لتنظيم الأرشيف. وهنا تجدر الإشارة إلى أنه لكي تصل رسالة من «ساردس» إلى «سوسة» لمسافة ٢٥٠٠ كيلو متر تقريباً عن طريق البريد، كانت تستغرق سبعة أيام.

بعد غزو مملكة عيلام، اعتمد الفرس استخدام الكتابة المسمارية على الألواح الطينية ولكن ثبت أن هذا النظام الكتابي غير كافٍ لخدمة الاحتياجات البيروقراطية للإمبراطورية في ظل وجود لغات وأنظمة كتابية مختلفة خاصة بالشعوب الواقعة تحت سيطرتها. وهكذا ففي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد تمّ تبنّي اللغة الآرامية التي كانت تمثّل بالفعل لغة مشتركة لمعظم المنطقة آنذاك، حيث حلّت محل الفارسيّة كلغة

٨٩. صورة بانورامية لبرسيبوليس. من إصدار Cornelis de Bruyn،
«Voyages de Corneille le Bruyn par la Moscovie, en Perse, et aux Indes Orientales...»، روان، Charles Ferrand، ١٧٢٥.

رسميّة للإمبراطورية.[٥] من الواضح إذن أنّ العديد من الكتبة كانوا يعملون في الأرشيف الملكي لخدمة مختلف الاحتياجات: من حفظ واستلام المراسلات وغير ذلك من الأعمال، ومع ذلك فقد بقي القليل من محتوى تلك المراسلات الرسمية لأن المادة التي كانت تُكتب عليها (من الجلد أو ورق البردي) كانت هشّة، على عكس الألواح الطينية التي كانت مادة قوية للكتابة ويرجع ذلك إلى مدى صلابتها بعد حرقها.

بالنسبة للفترة التي سبقت اعتماد الكتابة الآرامية، هناك دلائل على وجود مراسلات رسمية مكتوبة على الألواح بالمسمارية العيلامية وتحتوي هذه الألواح بشكل حصريّ على قوائم بها بيانات خاصة بإجراءات اقتناء أو استخدام السلع، أو بيانات متعلقة

بأعـمال البنـاء الخاصـة بتشـييد قصـور داريـوس وكسيركسـيس اللامعـة في برسـيبوليس أو غيرهـا مـن المنـازل الملكيـة مثـل الحريـم. ومـع ذلـك لا يوجـد مـن النصـوص الباقيـة سـواء المكتوبـة بالمسـمارية العيلاميـة أو الآراميـة مـا يحتـوي عـلى بيانـات دينيـة أو أدبيـة.[٦]

وفيـما يخـصّ أرشـفة الأنشـطة الملكيـة اليوميـة والتواصـل مـع شـطربيات الإمبراطوريـة

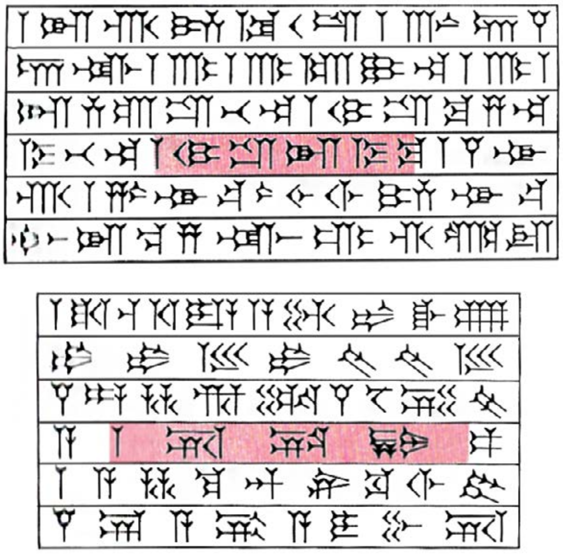

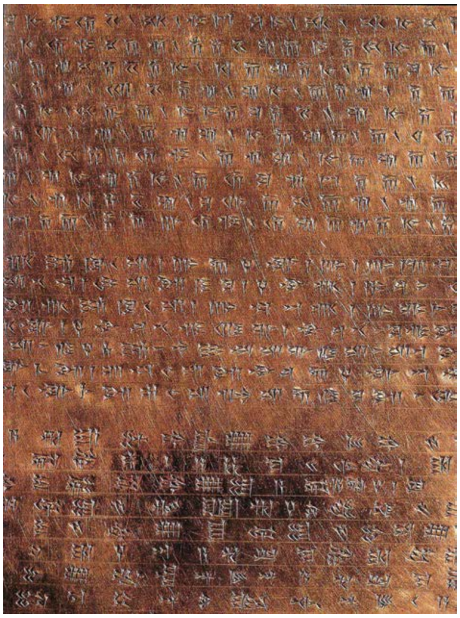

٩٠. نقش عيلامي وبابلي.

٩١. جزء من اللوحة الذهبية لداريوس، القرن السادس قبل الميلاد، برسيبوليس.

الصورتان ٩٠ و ٩١ من إصدار Andrew Robinson،
«The Story of Writing. Alphabets, Hieroglyphs & Pictograms»، لندن، Thames & Hudson، ٢٠٠٠ (٩٠: ص. ٧٩. ٩١: ٨١).

الفارسـية حتـى مـصر، تجـدر الإشـارة إلى وجـود مـواد متعلقـة بذلـك أيضـاً في البـلاط الملـكي لبابـل وآشـور ويهـودا.[٧] فقـد أصبحـت هـذه الطريقـة نموذجـاً أمـام الإسـكندر الأكـبر في اتّبـاع منهجيـة مماثلـة لـلإشراف عـلى إمبراطوريتـه، وعهـد بهـذا الإشراف إلى يومينـس الـكاردي الـذي كان في عونـه أيضـاً ديودوتـوس (أو ديوغنيتـوس) مـن إريثريـس بآسـيا الصغـرى (مقابـل جزيـرة خيـوس).

"الصحف الملكية" للإسكندر الأكبر

أنشأ الإسكندر مركزاً إدارياً وأرشيفاً من أجل إحكام السيطرة بشكل كامل على تنفيذ قراراته وأوامره، وذلك اتباعاً لخطى ملوك بلاد فارس وبهدف الإشراف الكامل على المناطق التي غزاها وكذلك العمليات العسكرية الجارية آنذاك. لقد سُمّيت هذه النشرة اليومية بالصحف الملكية أو «*βασιλικαὶ διφθέραι*» كما أطلق عليها كتسياس الكنيدوسي الذي استعان بها في كتابة عمله برسيكا، وتمّ استخدام (هذه الصحف الملكية) على نطاق واسع كنظام اتصال من قبل خلفاء الإسكندر، وخاصة من قبل بطليموس الأول ونسله على عرش مصر.[٨]

٩٢. يومينس الكاردي في معركة مع مرزبان أرمينيا نيوبتوليموس عام ٣٢١ قبل الميلاد. نقش من إصدار «Wars of Diadochi». ١٨٧٨ (م. أ).

وعلى رأس هذه الآلية البيروقراطية تمّ تنصيب يومينس الكاردي (٣٦٢ - ٣١٦ ق.م.)، من كارديا التراقيّة والذي كان يعمل أمين سر أوّل عند الملك فيليب الثاني ثمّ الإسكندر حيث كان من أقوى قادته كذلك.[٩] وبعد وفاة الإسكندر، وقف يومينس إلى جانب

بيرديكاس وأفراد العائلة الملكيّة ضد مرزبان فريجيا الكبرى أنتيغونوس مونوفثالموس (أي أنتيغونوس الأعور أو وحيد العين)، وبعد موت بيرديكاس بشكل عنيف، ظل يومينس يواجه أنتيغونوس بمفرده حتى وفاته.

أثبتت الآلية البيروقراطية التي عمل عليها يومينس أنها مناسبة للغاية، لضمان تواصل الإسكندر دائم الحركة مع الشطربيات والجيش، ولكن تمّ تدمير تلك الوثائق الهامة التي نتجت عن هذا التواصل عندما اندلعت النيران في خيمة يومينس فأحرقتها، ولكن الإسكندر أصدر أوامره على الفور باستعادتها بناءً على الوثائق الأصلية المحفوظة في أرشيفات الشطربيات.

وقد نُقل كل ما أمكن استعادته منها، بالإضافة إلى الوثائق الجديدة إلى بابل التي كان قد تمّ اختيارها كمقر ملكي للإسكندر، واستمر الحفاظ عليها كمجموعة تاريخية حتى بعد وفاته، حيث قدّمت معلومات قيّمة لكل من كان يرغب في دراسة التنظيم الإداري والسياسي الذي قام به القائد المقدوني. وكان رئيس الارشيف الذي يُدعى «γαζοφύλαξ» (أي حارس الخزانة الملكية للفرس) اسمه كسينوكليس، حيث كان يعمل أميناً للخزينة في عهد الإسكندر الأكبر.[١٠]

تبرئة الإسكندر الأكبر من تهمة حرق «الأفيستا»

من المؤكد اليوم بالدليل أن محاولة أتباع الزرادشتية اتهام الإسكندر بسلب تقاليدهم الروحية وتدمير نصوصهم المقدسة بالكامل بعد ترجمتها إلى اليونانية ما هي إلا نتاج دعاية أيدولوجية. وتم نسج هذه الدعاية بعد قرون من وفاة الإسكندر الأكبر من قِبل السلالة الساسانية (٢٢٦ – ٦٥٠ م)، وبشكل رئيسي في عهد كسرى الأول الذي حكم ما بين (٥٣٢ – ٥٧٩ م) حيث استُخدمت كسلاح أيدولوجي ضد اليونانيين والبيزنطيين. ولاحقاً استمر الأمويون والعباسيون في ترديدها منذ منتصف القرن الثامن فما بعده، وكان الخليفة المنصور هو الأكثر تبنياً لها.

وصلت إلينا النصوص المقدسة القديمة المنسوبة إلى زرادشت (زاراتوسترا أو زاراثوسترا)، نبيّ الفرس ومؤسس الديانة الزرادشتية عن طريق التناقل الشفهي لشعوب الشرق والذي يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد.[١١] وكانت هذه الشعوب تنتمي إلى أعراق مختلفة كانت تتحدث بلغات ذات أصول إيرانية ونزحوا من آسيا الوسطى

ليستقروا حوالي عام ١٠٠٠ ق.م. على الهضبة الإيرانية.

تمّ جمع التعليمات الدينية المنسوبة لزرادشت في كتاب مستقل بعنوان الأفيستا.[١٢] وبالنظر إلى أن الإيرانيين لم يستخدموا الكتابة بشكل منهجي، فقد انتشرت هذه التعليمات المقدسة شفهياً، بينما تمّ جمعها وتصنيفها في شكل مكتوب لاحقاً

٩٣. رسم توضيحي من إصدار Quintus Curtius Rufus،
«Alexander Magnus et in illum Commentarius Samuelis Pitisci»، أوترخت،
apud Franciscum Halmam، ١٦٩٣ (م. أ).

حوالي عام ٦٠٠ م. وبالطبع ليس من المستبعد أن يكون القائد المقدوني قد أعطى أمراً بترجمة ترانيم زردادشت التي تمّ تداولها شفهيّاً إلى اليونانية وذلك في سياق سياسته الثقافية العامة.

حول الأدب الفارسي

مقارنة بالموروث المكتوب والفريد للأدب اليوناني القديم، على أدنى تقدير من عصر هوميروس إضافة إلى الإنجازات المتنوعة للمفكرين اليونانيين، نجد أن الشعب الفارسي حتى عهد داريوس لا يملك سوى الكتابات ذات الطابع الديني والإداري ليضاهي بها، فأي نوع آخر من الأدب الأسطوري والديني نجد أنه نابع من تعليمات زرادشت المقدسة والتي ظلت حتى القرن السادس الميلادي تتناقل في شكل شفهي فقط.[١٣] بدأ أتباع زرادشت وكذلك الأباطرة الفرس وأصحاب العلم من حاشيتهم وكذلك الكتبة الذين كانوا يعملون في الأرشيف، في الاعتقاد بأن جميع العلوم والحكمة كاملة كانت محفوظة في الأفيستا ثمّ تمّ تدمير هذه النصوص من قِبل المقدونيين بعد أن استمد اليونانيون منها أفكاراً وحلولاً قيّمة لكل علم. وبطبيعة الحال فقد خدم هذا الادعاء أيدولوجيتهم الثقافية تماماً وساهم في اعتماد كون الأفيستا الكتاب الذي لا غنى عنه لكل أتباع زرادشت والذي يقدم الأجوبة الصحيحة عن كل شيء.

أيديولوجية الساسانيين

مع تقدم العرب في الأراضي التي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية البيزنطية في جنوب غرب آسيا وشمال شرق أفريقيا (غزو الإسكندرية عام ٦٤٢ م)، تأكّدت نهاية الإمبراطورية الفارسية الساسانية. ومع ذلك لم تمُت الأيدلوجية الزرادشتية بل عادت للظهور مرة أخرى بفضل الخلفاء العباسيين وبشكل خاص في عهد السياسة الثقافية للخليفة المنصور ما بين (٧٥٤ – ٧٧٥ م). في هذا الإطار وبعد سيطرتهم على جموع تدين بالزرادشتية، تبنّى العرب نظريات الساسانيين والتي بموجبها فإن محتوى جميع الكتب اليونانية كان مستمداً من النصوص الزرادشتية المقدسة.[١٤]

علاوة على ذلك فقد كان العرب وخاصة الخلفاء العباسيون في خلاف أيدولوجي دائم مع البيزنطيين، زاعمين أنهم لم يكونوا الورثة الحقيقيين للحضارة اليونانية القديمة بل هم أنفسهم! وهكذا تبنّوا نظرية نهب الإسكندر الأكبر لتقاليد الفرس الروحية، وحرصوا بشكل كبير على نشر ذلك في العالم العربي من جيل إلى جيل.[١٥]

كان كسرى الأول أهم أباطرة الساسانيين (٥٣١ – ٥٧٨ م) هو المسؤول الرئيسي عن تشكيل هذه الدعاية الأيدولوجية والتي استمر ترديدها أيضاً من قبل العرب المسلمين. وفي هذا الإطار ومع مرور الوقت تمت كتابة نصوص دُمِجت في كتاب الزرادشتية دنكارد (أي القضايا الدينية)، والذي يعود تاريخه إلى القرن العاشر الميلادي. يتحدث أحد هذه النصوص عن عهد داريوس، بينما نصّان آخران كُتِب خلال العصر العباسي.[١٦]

٩٤. نقش يصور داريوس وهو جالس على عرشه أعلى الدَّرَج العظيم للقصر في برسيبوليس. من إصدار جيفري وبريندا باركر «الفرس. من برسيبوليس إلى طهران»، ترجمة ب. سلطانيس، هيراكليون، من إصدارات جامعة كريت، (آفاق)، ٢٠٢٠، [٧٥].

الكتاب الرابع: [١] «أمر داريوس ابن داريوس [داريوس الثالث كودومانوس الذي حكم بين ٣٣٦ – ٣٣١ ق. م.] بحفظ نسختين لكامل الأفيستا والزند [وهو عبارة عن ترجمة باللغة الفارسية الوسطى للأفيستا والتعليق عليها]، كما تلقاهما زرادشت من الإله أهورا مزدا [Ahura Mazda = روح الخير]، بحيث تُحفظ إحدى هاتين النسختين في الخزانة والأخرى في الأرشيف.[١٧]

[٢] أمَر فولوغاسيس الأول (؟) الملك الفرثيّ الذي حكم بين [٥١ – ٨٠ م تقريباً] بإرسال مذكرة إلى الأقاليم [من أجل إجبارهم] على حفظ أيّ شيء أصليّ تمّ إنقاذه من الأفيستا والزند وأن يبقوه على الحالة التي وجدوه عليها، وكذلك حفظ أيّ تعليم صحيح – سواءً في شكل شفهيّ أو مكتوب – ينبع من هذين الكتابين وان يتم وضعه بمنطقة تنتمي للمملكة الإيرانية ولكن في أماكن متفرقة

منهـا، وذلـك نتيجـة للتدمـير والاضطرابـات التـي نجمـت عـن فتوحـات الإسـكندر الأكـبر وانتهـاكات المقدونيـين.[١٨]

[٧] قـام سـابور الأول ملـك الملـوك وابـن أرتاكسيركسـيس الـذي حكـم بـين (٢٤١ - ٢٧١ م) بجمـع حتـى الأعـمال غـير الدينيـة المتعلقـة بالطـب، وعلـم الفلـك، والحركـة، والزمـان، والمـكان، والجوهـر، والصدفـة، والتكويـن، والفسـاد، والتغيـير[أو التحـول]، والمنطـق وكذلـك المتعلقـة بالفنـون والمهـارات الأخـرى التـي كانـت منتـشرة في جميـع أنحـاء الهنـد والإمبراطوريـة

٩٥. رسم لـ Ernst Herzfeld يصور الإله أهورا مزدا. مأخوذ من نقش برسيبوليس. من إصدار «برسيبوليس، المدينة المخفية»، National Geographic (أسرار الحضارات القديمة)، أثينا، سيلينا للنشر، ٢٠١٣.

البيزنطيـة ومناطـق أخـرى، وبعـد مقارنتهـا بالأفيسـتا أمـر بإعـداد نُسـخ مـن تلـك الأعـمال التـي لم تحتـوي عـلى أخطـاء وتسـليمها للخزانـة الملكيـة لحفظهـا، كـما طـرح للنقـاش دمـج كل هـذه العلـوم إلى المزديـة...»[١٩]

وتظهـر وجهـة النظـر العربيـة الخاصـة بهـذا الموضـوع في مقدمـة ترجمـة عربيـة لعمـل باللغـة الفارسـية الوسـطى يمثـل كتابـاً فلكيـاً لزرادشـت ويتكـون مـن خمسـة أجـزاء حيـث ورد فيـه مـا يـلي:[٢٠]

«قال [المترجم]: «لقد ترجمت هذا الكتاب من أعمال زرادشت ... ولم أجد أيّاً منها ... يحتوي على العلوم الفلسفية ... لأنه عندما سيطر الإسكندر الأكبر على مملكة داريوس، طلب ترجمة جميع هذه الأعمال إلى اللغة اليونانية، ثمّ أمر بحرق الأصول المحفوظة في خزائن داريوس وتمّ قتل كل من اعتُبِر أن بإمكانه امتلاك بعض منها...».

وهناك إصدار عربيّ آخر ورد فيه ما يلي: [٢١]

«[٢] انطلق الإسكندر ملك الإغريق من مقدونيا لغزو بلاد فارس ... حيث قتل الملك داريوس ابن داريوس واستولى على مملكة الفرس ... ودمر المعارف المتنوعة التي كانت منقوشة على أحجار وأخشاب المباني المختلفة، فسوّاها بالأرض وأحرقها وألقى كل ما كان محفوظاً بداخلها.

[٣] ومع ذلك فقد أمر بنسخ كل ما كان محفوظاً في أرشيفات وخزائن إصطخر [مدينة في محل برسيبوليس] وترجمته إلى اللغتين اليونانية والقبطية. وبمجرد نسخ كل ما أراده من تلك [المحفوظات]، أمر بإحراق الأصول الفارسية [سواء ما تمّ كتابته منها بخط عادي] أو [بخط رسمي جماليّ]... . فقد حصل على كل ما كان يحتاج إليه من علوم الفلك، والطب والخصائص [الفلكية] [للأجرام السماوية]، ثمّ أرسل كل ذلك إلى مصر بالإضافة إلى المعارف الأخرى، والمقتنيات، والكنوز وأصحاب العلم ممن التقى بهم في رحلته. [٤] ومع ذلك فقد تم إنقاذ بعض أجزاء [هذه الكتب] في الهند والصين والتي اهتم ملوك بلاد فارس بنسخها والاحتفاظ بها هناك بأمر من نبيهم زرادشت ...».

دعاية على حساب الإسكندر الأكبر

كانت دعاية أتباع زرادشت بشأن نهب الخزانة الفارسية ومحفوظات ملوك بلاد فارس في عهد داريوس تهدف إلى تشويه شخصية الإسكندر الأكبر، كما كانت الإشارة المنهجية إلى وحشية القائد المقدوني نابعة من الطبقات الشعبية في العصر الساساني اللاحق، أي منذ بداية القرن السابع الميلادي، وهي جزء من الصراع المسيحي الوثني في بيزنطة والذي انتهى بهروب الفلاسفة إلى بلاط كسرى الأول بعد غلق المدارس الفلسفية الأثينية بناءً على مرسوم من الإمبراطور جستينيان.[٢٢]

خـــاتمة

إن الآراء التـي تـمّ ذكرهـا هنـا هـي جـزء مـن محاولـة نـشر فكـرة أن جميـع العلـوم دون اسـتثناء والمعـارف بشـكل عـام كانـت تنبـع مـن الأفيسـتا وأنـه تـمّ الحفـاظ عليهـا فقـط بفضـل رعايـة الساسـانيين لهـا وعـلى رأس هـؤلاء الملـوك أردشـير الأول، وسـابور الأول وكـسرى الأول. وبالطبـع في عهـد العباسـيين تـم إظهـار زرادشـت عـلى أنـه العـالم بـكل شيء والمتقـن لجميـع النظريـات العلميـة مـن كل الحضـارات وبـكل لغـات العـالم. وكتـب العـالم قسـطا بـن لوقـا (Qusṭā ibn-Lūqā، ٩١٢ م):

«يدعـي أتبـاع الزرادشـتية أن زرادشـت ألـف كتابًـا في اثنـي عـشر ألـف مجلـد، تـمّ تجليدهـا باسـتخدام جلـد الجامـوس، مكتوبًـا بالحـبر الذهبـي بجميـع لغـات العـالم ويشـتمل عـلى جميـع العلـوم...»[٢٣]

تمهيد الفصل الخامس

يتعلـق الفصـل التـالي بموضـوع الكتـاب الرئيـسي وهـو متحـف الإسـكندرية. في البدايـة يتـمّ التحـدث عـن رغبـة الإسـكندر الواضحـة في ربـط مدينـة الإسـكندرية - التـي أسسـها وصممهـا بالتعـاون مـع مهندسـه المعـماري دينوقراطيـس – بالمركـز الثقـافي في أثينـا والـذي كان تحـت إشراف معلمـه أرسـطو. بعـد ذلـك يتـم التعـرض للطابـع الدينـي للمتحـف وتنظيمـه ورؤسـاء المكتبـة وكذلـك البعـد المـالي، ويتمثـل في الرعايـة المقدمـة مـن قبـل البطالمـة مـن أجـل عمـل المتحـف دون عقبـات وغـير ذلـك مـن الأمـور وكذلـك مـا يتعلـق بسـكن العـمال وإطعامهـم وإجـراء أجورهـم عليهـم. كـما يُذكـر أيضـاً التطابـق الـذي حـدث مـع مـرور الوقـت بـين آلهـة الأوليمـب والآلهـة المصريـة ويشـهد بذلـك تلقيـب الإسـكندر الأكـبر بــ «ابـن آمـون» مـن قِبـل هيـكل وحـي آمـون رع.